الخط المعياري: سلاح ضد الجهل والتخلف

أ.د. عبد المالك بوحجرة

ملخص

يتم في هذا المقال عرض الأسس التي بني عليها الخط المعياري لأجل كتابة العربية بخط منفصل، وهو يحافظ على تقاليد الكتابة العربية العريقة، لأنه مبني بالدرجة الأولى على نموذج الخط الكوفي والذي استعمل في البداية لتدوين القرآن، وهذا قبل استبداله بالخط النسخي. فهذا الأخير أكثر ملاءمة مع الكتابة باليد. فيما بعد تم الرجوع للخط الكوفي، واستعمل خصيصا للزخرفة على جدران المباني والمساجد، والنقش على الآلات، وهذا بسبب سهولته النابعة من كثرة الخطوط المتوازية والمستقيمة في تمثيل الحروف. فالعربية تحتوي على خطين مختلفين، عاشا جنبا إلى جنب لأداء وظيفتين مختلفتين. وإذا كان الخط النسخي يتلاءم مع الكتابة باليد، فالخط الكوفي له أكثر قابلية وتجاوب مع الآلة. ولقد حان الوقت لإعطائه نفس الأهمية التي أعطيت للخط النسخي.

١. مقدمة

الكثير من الناس يتساءلون في كل وقت، لماذا لا تكتب العربية بحروف منفصلة؟ هل هذا راجع إلى حروفها المدورة والمنحرفة، أم بسبب صعوبة كتابة بعض الحروف مثل الهمزة، أم بسبب القرآن الكريم، والذي وصل إلينا مكتوب بخط متصل؟ لقد طرحت على نفسي هذه الأسئلة منذ زمن طويل، وقرأت عدة اقتراحات في الكتب، والجرائد حول تطوير الكتابة العربية، ولكن كنت أحس دائما بأنه يوجد حاجز عظيم ومقاومة كبيرة تجاه تطوير الخط العربي، ترجع بالدرجة الأولى إلى الغموض واللبس الذي يحيط بكيفية تصميم الحروف العربية، والطرق التقليدية الجامدة التي تشرح ذلك. فلا بد من دراسة علمية معمقة للخط العربي، وتاريخ تطوره عبر العصور إذا أردنا فهم سر هذا الخمول.

إن الفضل يرجع إلى شعب عربي قديم في اختراع حروف الأبجدية. وبما أن ظهور الحبر والورق لم يتم سوى قرون عديدة بعد ذلك، فالكتابات الأولى كانت بحروف منفصلة ومن اليمين إلى اليسار عند كل الشعوب القديمة التي استعارت الأبجدية الفينيقية. توجد أمثلة كثيرة على الكتابة المنفصلة للعربية في القديم[١]، كما تشهد عليه الآثار التي وصلتنا من جنوب الجزيرة العربية، وكذلك من جنوب الأردن، كما هو محفوظ في الخطوط الحميرية والنبطية. الأنباط كانوا يستعملون خطا منفصلا في الكتابة على الصخور وصك النقود، وخطا متصلا طور فيما بعد للاستعمال في المعاملات التجارية والحياة العادية. ولم يكن استعمال خطين جنبا إلى جنب مجرد صدفة، بل له أسبابه المنطقية والعملية، لأن الشعوب العربية في ذلك الوقت كانت لديها حرية التفكير، تنظر من حولها، وتصبوا دائما إلى تحقيق المزيد من التقدم والازدهار، عبر استعمال كل ما هو جميل ونافع من تقاليدها، وتقاليد الحضارات الأخرى.

سبب الكتابة بخط منفصل على الصخور بسيط، يرجع إلى استعمال آلة حادة أومنقار. فهي عملية تتطلب جهدا ودقة، ولذلك فأغلب الحروف ممثلة بخطوط مستقيمة عمودية، كتبت من اليمين إلى اليسار لتسهيل نقشها. وكتجربة بسيطة، لو أخذت آلة حادة في يدك، وحاولت نقش خطوط على صخر ستلاحظ سهولة كتابة حرف مثل (ألف) أو (راء)، والصعوبة الكبيرة في كتابة حرف مثل (صاد) أو (سين)، الأكثر ملاءمة مع الكتابة المتصلة. ربما لاحظت كذلك بأن تحريك اليد من اليسار إلى اليمين يتم بصعوبة وجهد كبير. ونفس الشيء يقال عند الجلوس إلى طاولة والكتابة على الورق بواسطة قلم، ولو أن الجهد المبذول صغير جدا بالمقارنة. ولقد أثبتت الدراسات الإحصائية بأن كثيرا من الكتاب في الدول الغربية كانوا يصابون بما يسمى بمرفق الكاتب، يشبه إلى حد ما مرفق لاعب التنس، وهو عبارة عن ألم شديد في الساعد ناتج عن الكتابة.

دراسة مقارنة في هذا الميدان سوف تكشف عن نتائج مهمة، ولا أظن بأننا نعرف بعد نسبة الكتاب العرب الذين يصابون بهذا الداء.

عندما استعملت الشعوب العربية في القديم الكتابة المنفصلة، كان ذلك لأسباب عملية بحتة. ولكن فيما بعد، ونظرا للتطور الحضاري، وظهور الحبر والورق، انتقلوا إلى طريقة أخرى في الكتابة للاستجابة إلى ضرورات ومتطلبات الحياة الجديدة، ولتحقيق رغبات الناس في طلب العلم، والمعرفة، ونشر الرسالة الإسلامية، كان هنالك ضغط كبير من أجل ترجمة وزيادة إنتاج الكتب، وهذا بالسرعة في الكتابة. ومن السهولة ملاحظة الاختلاف في السرعة لوكتبت بخط متصل أومنفصل باليد، لأن في الأخير الحبر يسيل باستمرار وعلى طول كلمات، بينما في الخط المنفصل توجد تقطعات بين الحروف، وهذا ما يقلل بكثير من سرعة الكتابة. نفس الشيء حدث بالنسبة للخط اللاتيني. بحيث كان في الأول يكتب بحروف كبيرة منفصلة (MAJUSCULE)، ولنفس السبب الذي ذكر أعلاه طورت حروف صغيرة (minuscule) للكتابة بخط متصل.

لم تر الشعوب في العصور الوسطى أهمية استعمال الخط المنفصل كما حدث من قبل. ولهذا فمعظم الكتب والنقوش والزخارف التي وصلتنا من تلك الفترة تمت بواسطة خط متصل في الخطوط المختلفة. وبالتالي فانتشار العلم والمعرفة كان دائما محدودا بين الطبقات الحاكمة والغنية، نظرا للأثمان الباهظة في تخطيط الكتب وندرتها.

رغم أن العرب والمسلمون بصفة عامة انتبهوا إلى معظم الاكتشافات والاختراعات التي ظهرت في العصور الوسطى، ويرجع لهم الفضل إلى حد كبير في استمرارية العلم والفلسفة، ونقل الحضارة الإنسانية إلى أوروبا، إلا أنهم فشلوا في ملاحظة بأن كل حرف عربي له وزنه في كل الكلمات العربية وبالتالي فالعربية أكثر قابلية للكتابة بخط منفصل من أية لغة أخرى. ومن أكبر الألغاز في التاريخ، هوعدم تنبههم للطباعة بواسطة الرموز المتحركة والتي ظهرت لأول مرة في الصين سنة ١٠٤١م.

ربما الشيء الوحيد الذي يفسر ذلك، هوأن الخط العربي المتصل وصل في ذلك الوقت، وفي فترة قصيرة من الزمن إلى درجة كبيرة من الإتقان والكمال في كتابة القرآن والزخرفة. وبطبيعة الحال أصبح جزء لا يتجزأ من الهوية الثقافية للشعوب الإسلامية ولم تر الفائدة من اللجوء إلى نماذج أخرى في الكتابة.

مما لا شك فيه، وباعتراف الأجانب، لا يمكن مقارنة جمال وسهولة كتابة الخط العربي المتصل بأي خط آخر في العالم. وكمثال على انبهار الغرب بجمال ورونق الخط العربي، لقد كانوا يزينون مبانيهم في العصور الوسطى، وحتى عصر النهضة بقطع من الخط العربي، بحيث كانوا يجهلون بأنها تمثل عبارات مثل لا إله إلا الله[٢].

من الطبيعي، أن الشعوب الأقل قابلية للتغير والتطور، هي تلك التي وصلت إلى درجة كبيرة من التقدم والازدهار في عاداتها وتقاليدها فتصبح شبه عمياء لما يحدث من حولها. وهذا ما يؤدي في المدى القريب أوالبعيد إلى ضعفها وانحطاطها. فتوجد عدة أمثلة عن حضارات قديمة وصلت إلى درجات كبيرة من التطور ثم انحطت واندثرت بعد ذلك، وهذا بالضبط ما حدث للحضارة العربية الإسلامية. فانحطاطها اقترن مع نهضة الدول الأوروبية في جميع الميادين من بينها الطباعة.

لقد بدأت الطباعة الحديثة في ألمانيا في منتصف القرن الخامس عشر، وانتشرت بسرعة البرق عبر كل بلدان أوروبا، لتحدث ثورة عظيمة في ميدان الكتابة وانتشار العلم والمعرفة، بحيث أقل من قرن بعد ظهورها اختفت الكتب والنسخ المكتوبة باليد نهائيا من السوق. وبما أن معظم اللغات الأوروبية حافظت على خطها المنفصل إلى جانب الخط المتصل، فالطباعة بالرموز المتحركة لم تحدث أي زوبعة في تقاليد الكتابة، وبالتالي فالاختيار كان بسيطا. وظهر بأن الكتابة المنفصلة تتلاءم أكثر مع أسلوب الطبع الجديد. ولوأنه في النهاية أحدثت تغييرات وتحسينات طفيفة على كل من الخطين لجعلهما أكثر ملاءمة مع الرموز المتحركة. ولهذا، نلاحظ الآن بأن اللغات الأوروبية تحتوي على أبجديتين مختلفتين.

لقد قطعت أوروبا أشواطا طويلة في الطباعة قبل أن يبدأ العرب في استرجاع قواهم والنهوض من سباتهم العميق. فعندما نفضوا الغبار من على وجوههم وفتحوا أعينهم، وجدوا بأن الهوة بينهم وبين الغرب كبيرة جدا، فكانت صدمة شديدة لا يزال أثرها واضحا حتى الآن. فتلك الصدمة أحدثت شقوقا كبيرة في هوية وشخصية الإنسان العربي، بحيث من المستحيل الآن إيجاد شخصين متشابهين

في الرأي والتفكير. وانعكس كل هذا على الساحة الثقافية والسياسية للعرب والمسلمين، وأصبح من الصعب الاتفاق على عمل شيء معين أو بداية مشروع، وبالطبع فاللغة العربية لم تكن بمنأى عن هذه التناقضات، ولهذا فضلت الأغلبية وضع الثقة في "الأجداد"، والاستمرار بما وصلوا إليه من نتائج وأفكار، بدون تطوير أو تغيير.

عندما ظهرت الطباعة أولا في الصين، كانت تتم بطريقة بدائية ولم تنافس أبدا الكتابة باليد، ولكن في أوروبا، وفي مرحلة قصيرة جدا وصلت إلى درجة فائقة من التطور، بحيث كل المنشورات أصبحت تتم آليا. وبما أن العالم العربي والإسلامي كان قد دخل نومه العميق في تلك الفترة، فأول محاولة لطبع الخط العربي[٣] تمت في إيطاليا سنة ١٥١٤م، ومن طرف مستشرقين مسيحيين. ولهذا السبب، فالبلد العربي الأول الذي وصلته الطباعة هو لبنان سنة ١٦١٠م، مع تأسيس مطبعة المنستير. البلد الثاني هو مصر، بحيث أدخلت إليه الطباعة مع البعثة النابوليونية سنة ١٧٩٨م، وبدأت مطبعة بولاق العمل رسميا سنة ١٨٢١م، ولم تظهر أول جريدة إلا في سنة ١٨٢٨م (الوقائع المصرية).

في بداية القرن التاسع عشر، تم نقل المطبعة العربية التي كانت في مالطا إلى بيروت من طرف بعثة مسيحية بروتستانية، وطبع أول كتاب من طرف المطبعة الكاثوليكية بالعربية سنة ١٨٥٤م. في المغرب العربي لم تظهر الطباعة العربية إلا في سنة ١٨٧٤م، مع نشر جريدة المبشر في الجزائر. وكما يدل عليها الاسم، فهي استعملت من طرف الفرنسيين لمحاولة نشر المسيحية.

النتيجة التي يمكن استخلاصها مما سبق، هو أن كل المحاولات الأولى لطبع الخط العربي تمت من طرف أجانب، ولا سيما المبشرين الذين لم تكن لديهم دراية واسعة بالكتابة العربية، ولهذا فالمطابع الأولى استعملت ما يزيد على ٤٠٠ رمز من أجل طبع الخط النسخي، تماما كما هو مكتوب باليد، وبدون تحسين أو تغيير كما فعلوا مع الخط اللاتيني.

ومن هنا بدأت الفكرة تتبلور بأن العربية لغة صعبة، غير مستساغة، لا تتماشى مع العصر.

الشيء الآخر الذي ساهم في عرقلة تطوير الخط العربي كذلك هو أن الشعوب الإسلامية غير العربية، لم تدخل مرحلة الطباعة بالرموز المتحركة إلا بعد المرور بمرحلة الطباعة الحجرية، كما حدث في الهند، تركيا، وإيران. فالطريقة الأخيرة لها مرونة كبيرة في تمثيل الصور، والخط العربي التقليدي بأشكاله الزخرفية. وكل هذه الخصائص لا تزال واضحة في الخط النستعليقي أو الفارسي. فكما نلاحظ، المدار الذي وضع فيه القمر الصناعي الذي يحمل الخط العربي، حدث في ظروف تاريخية خارجة عن نطاق وإرادة العرب، وتم بواسطة صاروخ أجنبي. ولقد استمر الخط العربي في الدوران بنفس الطريقة لمدة طويلة، وكل المحاولات من أجل تصحيح مداره فشلت في الماضي، وهذا لأسباب عديدة من بينها قلة الإطارات المختصة، وانعدام الإمكانيات.

ومع بداية نهضة العالم العربي والإسلامي، واسترجاع شعوبه لسيادتها السياسية والاقتصادية، ظهرت الحاجة من جديد في تعميم العلم والمعرفة باستعمال وسائل عصرية. ولهذا، بدأ الكثير من المفكرين والباحثين في البلدان العربية بالمناداة باستصلاح الإملاء والكتابة العربية حتى يتسنى صنع مطابع، وآلات كاتبة عربية رخيصة الثمن وفي متناول الجميع.

الاقتراحات تراوحت من استبدال الخط العربي بالخط اللاتيني في كتابة العربية من جهة، كما نادى به سلامة موسى[٤] في كتابه البلاغة العصرية واللغة العربية (القاهرة ١٩٤٥م)، إلى استعمال خط وحدوي منفصل من جهة أخرى، كما نادى به نصري خطار[٥] في مقالته الخط الوحدوي: سلاح ضد الأمية في جريدة الكلية (ماي ١٩٥٥م). نفس الاقتراح نادى به يوسف غصوب[٦] في مقالته إصلاح الأبجدية العربية في جريدة المشرق ثلاثين سنة من قبل.

نصري خطار ادعى في اقتراحه بأنه ممكن استبدال الـ٤٠٠ رمز الذي كان يستعمل في الطباعة العربية بـ٣٠ رمز فقط، تمثل ٢٨ حرف أبجدي منفصل، زيادة على التاء المربوطة، والمقطع لا. لقد ظهرت آلاف المحاولات مثل هذه منذ بداية هذا القرن، كلها تهدف إلى إصلاح الخط والطباعة العربية، ويمكن ذكر هنا اقتراح محمود تيمور سنة ١٩٥١م، والذي عرضه على مؤتمر الأكاديمية العربية الذي عقد بالقاهرة. اقتراح مشابه أدلى به زهير الشيهابي[٧] في مقالته "مشروع لكتابة الحركات بحروف عربية"، جريدة الأكاديمية العربية (سنة ١٩٢٩م). وبدون شك أهم اقتراح لحد الآن، هو ما قام به أحمد لخضر غزال[٨] في الخمسينيات. لقد كان السيد لخضر مدير

معهد التعليم الأساسي بالمغرب. وتجربته الطويلة في التعليم مكنته من الاستخلاص بأنه لا بد من تخفيض عدد الرموز المطبعية للقضاء على الأمية. وبعد بحث معمق دام سبع سنوات كاملة، توصل إلى تصميم خط عربي خال من الزخرفة، ويحتوي على ٩٠ رمز فقط (يشمل كل حروف الأبجدية، بما فيها صور الحروف في بداية، وسط ونهاية الكلمات، زيادة على الأرقام ورموز أخرى). ولتبيان ذلك، قام بنشر جريدة بهذا الخط أطلق عليها اسم "منار المغرب"، موجهة بالدرجة الأولى إلى المثقفين. ومباشرة بعد ذلك في سنة ١٩٥٨م، اتخذت الحكومة المغربية قرار مهم يتمثل في تبني النظام الجديد واستعماله في الإدارة، وطبع الكتب المدرسية.وهكذا فلم يمر وقت طويل حتى انتشرت هذه الكتابة المختصرة إلى لبنان في نفس العام، وكل الأقطار العربية فيما بعد، كما إن سبب نجاح هذا الاقتراح يرجع بالدرجة الأولى إلى كونه يتجاوب مع متطلبات العصر دون المساس بتقاليد الكتابة العربية الأصيلة. وكما نلاحظ الآن، لقد حدث "تطور" كبير في طبع الخط العربي المتصل، ولكن كل الاقتراحات المتعلقة بالخط المنفصل واجهت معارضة شديدة وهذا لعدة أسباب من بينها:

١- كون جل المقترحات تقليد أعمى للخط اللاتيني، دون مراعاة الذوق العربي، والطابع المميز للحروف العربية.

٢- عدم التمييز في العربية بين فن الخطاطة اليدوية وتقنية الطباعة الآلية.

٣- لم تكن هنالك دراسة معمقة للخط العربي، من أجل فهم دور وأهمية كل حرف في الأبجدية، ولا سيما الهمزة، بحيث كل الاقتراحات فشلت في تمثيلها كما ينبغي في الكتابة المنفصلة.

ولأسباب تاريخية تتعلق بظهور الكتابة فهي لا تعتبر حرف كبقية الحروف. وإذا كان هنالك رمز يساء فهمه من طرف أغلبية الناس فهوبدون شك الهمزة. ورغم وجود هذا الصوت في اللغات الأخرى، إن العربية هي اللغة الوحيدة في العالم التي اعترفت به وأعطته رمزا مختلفا عن حرف ألف، ولوأنه يوجد بعض الخلط عند طبعه في الكتابة الحديثة المختصرة. يجب التوضيح هنا كذلك بأن كل قواعد كتابة الهمزة هي بسبب الخط المتصل، ولواستعملت حروف منفصلة عند تدوين القرآن في البداية، لما كانت هنالك الحاجة لوضع تلك القواعد كما سنرى أدناه.

ورغم أن كتابة الهمزة تبدوللوهلة الأولى معقدة، إلا أنها مبنية على المنطق، بحيث راعى فيها أجدادنا جمال ورونق الخط العربي، وسهولة كتابته. في البداية، عندما ظهرت الأبجدية، كان حرف واحد (ألف) يستعمل للدلالة في آن واحد على حرف صائت كما في كلمة (مال)، وحرف صامت كما في كلمة (مروءة)، مثله كمثل حرف (واو) وحرف (ياء). فكل منهما لا يزال يدل في الأبجدية العربية ومعظم الأبجديات الأخرى على حرف ثنائي. في اللغات الأوربية، لا تظهر الهمزة إلا نادرا ويتم تمثيلها برموز مختلفة، وكما هومعروف [١٠،٩] فأبجدية اللغات الأوربية لا تمثل أصواتها بكفاءة، والهمزة ليست بحالة شاذة. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للعربية، بحيث نجد الهمزة في كل المواضيع، في مقدمة، وسط ونهاية الكلمات، ولهذا السبب رأى العرب من الضروري تمثيلها برمز مختلف، حتى لا يكون هنالك التباس في القراءة والكتابة. ومن جهة أخرى لم تكن هنالك الحاجة في تمثيل (واو) و(ياء) برمزين مختلفين، وهذا لأن المقطع (وو) لا وجود له في العربية والمقطع (يي) لا يقع سوى في وسط الكلمات.

لنتخيل الآن بأنه يوجد لدينا رمز واحد فقط (ا) لتمثيل الحرف الصائت ألف والهمزة، ونستعمل هذا الاصطلاح في كتابة الكلمات التالية:

قرآن، مؤامرة، رئيس، سماء، أمل، إبهام، مروءة.

والتي تصبح:

قراان، ماامرة، رايس، سماا، امل، ابهام، مرواة.

فكما نلاحظ يوجد هنالك التباس في قراءة الكلمات الأخيرة. فكلمة (قرآن)، مثلا، يمكن قراءتها (قرائن)، و(مؤامرة) تصبح (ماأمره) و(مروءة) تصبح (مرواة). فالأمثلة كثيرة، ولهذا السبب أدخل العرب رمز جديد لتمثيلها، ووضعوا قواعد كتابتها.

إن التعقيد الرئيسي في كتابة الهمزة ناتج عن وضعها على الحروف الصائتة، ولكن اختيار الحرف الحامل للهمزة يتبع في معظم الأحيان حركة الحرف الذي يسبقها، كما في (مؤامرة)، فالواو (الحرف الحامل) يتبع حركة حرف الميم (الضمة). وفي بعض الأحيان

اصطلاح كتابتها ناتج عن مراعاة جمال الخط لا غير، كما في (رئيس)، بحيث لو اتبعنا نفس المنطق لكتبناها (رأيس).

إذا أردنا أن نكتب العربية بخط منفصل يجب أن ننظر إلى الهمزة بالضبط كما ننظر إلى الحروف الصامتة الأخرى [١٤-١٠]، لأنها تنتمي إلى حروف الوقف مثل: ق، ك، د، ت، ط. فموضع إخراجها يقع في الحنجرة، ومن وجهة نظر صوتية ولغوية فإنها تنطق بنفس الطريقة التي تنطق بها حروف الشد الأخرى في الأفعال العربية المختلفة، كما تشهد عليه الأمثلة التالية:

إفعال = ت م س ا ح = ءب ها م

مفعلة = م م س ح ة = م ء د ن ة

مفتعل = م ج ت م ع = م ء ت م ر

فعال = ج م ا ل = س م ا ء

ويجب كذلك أن تكتب مستقلة عن الحروف الصائتة، باعتبارها كحرف كامل الحقوق من حروف الأبجدية في الخط المنفصل. ويمكن عندئذ الاستغناء على رموز عديدة في الكتابة:

ء، ؤ، أ، إ، ئـ = ء

ا، اُ = ا

آ = ءا

لقد تم استبدال ثمانية رموز كاملة برمزين فقط، ورغم هذا فالاصطلاح الجديد أكثر وضوح ودقة في كتابة العربية. لأنه يوجد فرق شاسع بين همزة الوقف (ء)، والحرف الصائت (ا). إن همزة الوقف هي الهمزة الحقيقية، ولهذا يجب تمثيلها برمز الهمزة وحدها، وهي تقع في بداية، وسط، ونهاية الكلمات كبقية الحروف الصامتة. همزة الوصل (ا) تقع في بداية الكلمات و(الـ) التعريف، وتستعمل كما يدل عليها الاسم، لربط الكلمات في الجمل، ويجب الدلالة عليها دائما بحرف ألف، لأنها في علم الصوتيات أقرب إلى الألف أكثر من الهمزة.

همزة المد (آ)، يجب تمثيلها بالمقطع (ءا). وهذا الاصطلاح يستعمل دائما في كتابة القرآن بالخط النسخي. بحيث كلمات مثل (قرآن)، (رؤوسهم) و(آمنوا) تكتب (قرءان)، (رءوسهم)، و(ءامنوا). لا بد من الإشارة هنا كذلك إلى نقطة هامة جدا وهي تتعلق بوجوب وضع منهجية واضحة أثناء تصميم أبجدية جديدة وهذا ما كان غائبا في كل الاقتراحات السابقة، مما أدى إلى غياب الانسجام والدقة في تمثيل الحروف.

قام العرب في الماضي باتباع نوع من المنهجية في تصميم الحروف، وأحسن مثال على ذلك هو استعمال النقطة، الألف والدائرة كمقياس في رسم حروف الخط الثلثي والنسخي [١٧-١٤] . ولكن في الحاضر غاب النظام والمنطق العلمي والمنهجية في وضع المصطلحات وتفسير الظواهر الطبيعية وسائر شؤون الحياة عند العرب مما أدى إلى فوضى كبيرة وغموض وعدم فهم الأشياء على حقيقتها. وربما أهم عمل في هذا الميدان تم في العصر الحديث هو ما قام به المستشرق روبرت هام[١٨] ولخصه في كتابه الهام، "من أجل حروف مطبعية عربية". حيث اقترح منهجية علمية في تصميم الخط العربي، ولم يدعي في كتابه بأنه وصل إلى نتيجة مرضية، لكنه شرح وبإسهاب الطريقة التي يجب أن يرتكز عليها أي بحث جدي في تصميم الخطوط.

٢. كتابة العربية بالكمبيوتر

لا يمكن التطرق لموضوع كتابة العربية بالكمبيوتر دون الفصل في أهم المصطلحات المستعملة في ميدان الكتابة والخط. إن عدم وجود مصطلحات واضحة في العربية[١٩] تعبر على أشياء ومفاهيم حديثة يمثل أكبر عائق أمام العرب في الاستعمال الصحيح والجيد للتكنولوجيات الحديثة قبل تطويعها لخدمة العربية وما يترتب عن ذلك من سهولة في استعمالها وتدريسها. إن المشكلة ثقافية أكثر منها علمية. ومن أجل فهم الآخر والاستعمال الصحيح لمصطلحاته لا بد من الانغماس في ثقافته.

لم يكن بالإمكان الوصول إلى النتائج المعروضة في هذا البحث لولا الدراسة المقارنة[٢٠] للغة العربية بأهم اللغات الحديثة، ومحاولة إيجاد مصطلحات دقيقة مكافئة في العربية.

ترتيب واضح للحروف العربية، وذلك بوضع مصطلحات سهلة للتمييز بين حروف الشد (consonants) وحروف المد (vowels) هو الذي أدى إلى ترقية الهمزة واعتبارها كحرف شد مستقل، كامل الحقوق في الخط المعياري.

لا بد كذلك من إيجاد مصطلحات للتمييز بوضوح بين ما يسمى في الأنكليزية callygraphy

وtypography. ولأسباب تاريخية محضة عاش العرب والمسلمون ولقرون على هامش الثورة العلمية والتكنلوجية للعالم برفضهم تبني أسلوب الطباعة في نشر العلم والمعرفة. ولهذا السبب لا يوجد حتى الآن عند العرب تمييز بين مايمكن تسميته بالخطاطة اليدوية (callygraphy) وما يمكن تسميته بالخطاطة المطبعية (typography). فيوجد حاليا مصطلح واحد يدل على ذلك وهو "الخط العربي" وما انجر عن ذلك من غموض وعدم إدراك وتقبل لفن الخطاطة المطبعية، والتي يجب أن تبنى على تقنيات علمية زيادة على الأمور الجمالية. فيمكن القول وبكل بساطة بأن هذا الفن الأخير لا وجود له في العربية لحد الآن ما دامت الحروف المطبعية العربية هي صورة طبق الأصل للكتابة اليدوية.

رغم أن الطباعة لا تتلاءم كثيرا مع الخط المتصل سواء في العربية أو أية لغة أخرى، فالعرب بذلوا جهودا معتبرة في هذا الميدان، وطوروا آلات طبع حديثة (في مخابر أجنبية)، لا تزيد تعقيدا عن الآلات المستعملة في طبع الخط اللاتيني المنفصل. ونرى الآن بأن كل المطبوعات في العربية تتم بخط متصل متفاوت النوعية، وكل الصعوبات في كتابته نسيت، ومن الصعب إدراكها. ولكن المشكلة، وكما حدث في الأيام الأولى من ظهور الطباعة، نحن من جديد في خضم ثورة تكنلوجية عظيمة، وتتمثل في اختراع كبير، ألا وهو الكمبيوتر. فهذه الآلة قلبت رأسا على عقب كل القوانين والأنظمة التي كانت تستعمل من قبل. بحيث في فترة تاريخية وجيزة انتقل الكمبيوتر من المخابر والاستعمالات المتخصصة ليكتسح كل مجالات الحياة، وظهر وسط جديد لنشر المعرفة لا مثيل له في تاريخ الإنسانية، مستغلا القوة السحرية لهذا الجهاز، ألا وهو الإنترنات. لم تكن هنالك الحاجة في الماضي للعودة إلى خط عربي منفصل، ولكن في عصر المعلوماتية والأنترنات، لقد أصبحت ضرورة لا بد منها. وكما يدل عليه هذا البحث، توجد لدينا حرية كبيرة في استعمال أحدث ما وصل إليه العلم والتكنلوجيا من أجل تصميم خط جميل يتماشى مع متطلبات العصر، وخال من كل "النقائص" المرتبطة بالخط المتصل عند كتابته بواسطة الكمبيوتر.

لقد كانت البشرية وحتى ماض قريب تعيش في عالم متصل يسيطر عليه الإنسان بطبيعته المتصلة (نسبة إلى الحواس التي تعمل بالإشارات المتصلة، سواء كانت كهربائية، ميكانيكية أو غيرها)، إلا أننا الآن نعيش في عالمين متداخلين، عالم عادي متصل analog world وعالم افتراضي منفصل digital world تسيطر عليه الآلة بطبيعتها المنفصلة. بوادر ظهور عالم جديد يفضل التعامل بإشارات منفصلة بدأت مع اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر كما ذكرنا أعلاه، وكل الشعوب التي أدركت معنى ذلك، تمكنت من مواكبة التقدم التكنلوجي والمساهمة في إثرائه. لقد كان العالم وإلى وقت غير بعيد يتحرك بسرعة بطيئة، نظرا لأن الكثير من العقبات التكنلوجية في معالجة المعلومات كانت لا تزال قائمة، ولكن الآن عجلة التقدم تسير بسرعة رهيبة، بحيث من الصعب الاطلاع على كل هذه التطورات والمستجدات والتي تحدث تقريبا كل يوم.

ورغم التعقيد الذي يبدو في عالم الإنترنات والمعلوماتية، إلا أن الاختراعات والأجهزة التي يتم تطويرها وإنتاجها بسرعة مذهلة (لتعويض أجهزة أخرى لا تزال صالحة) تقوم بإنجاز العمليات البسيطة التالية:

خزن، معالجة، إرسال، وعرض للمعلومات.

قبل اختراع الآلات الحديثة والكمبيوتر، كانت هذه العمليات تتم يدويا. بحيث في العصور الوسطى أظهر الإنسان مهارة كبيرة في استعمال الحبر والورق، وطور كتابة متصلة لتحقيق هذا الغرض. وكما نعرف لقد تفوق العرب في هذا المجال، نظرا لتكييف الحرف العربي وبأناقة فائقة مع الكتابة المتصلة. الغاية المنشودة كانت دائما ولا تزال السرعة، الدقة والكفاءة في إنجاز العمليات المذكورة أعلاه.

لم يجد الأوروبيون صعوبة كبيرة في تكييف خطوطهم مع الكمبيوتر ذو الطبيعة المنفصلة، لأن تلك الخطوط تم تطويرها مع ظهور الطباعة، لكن للأسف، ونظرا لأسباب تاريخية محضة، لم يدرك العرب بعد أهمية الكتابة المنفصلة. والشيء الذي جعل المسألة أكثر تعقيدا هو كون العالم العربي مستهلك وليس صانع للتكنلوجيا، وبالتالي فالمشاكل العملية النابعة من استعمال الخط المتصل مع الآلة لا يمكنه إدراكها لأن الحلول في كتابة وطبع الخط العربي تأتي جاهزة بسلبياتها وإيجابياتها من المخابر الغربية.

وما دام الإنسان العربي يشاهد الخط العربي كما هو سواء كتب باليد أو كتب بواسطة الآلات الحديثة أو الكمبيوتر، سيبقى متقوقعا في عالمه المتصل والذي يتميز بالهواية، أي عدم الدقة وقلة السرعة والكفاءة

وهذا بالمقارنة مع عالم الاحتراف الذي لا يمكن بلوغه وإدراكه إلا بتعلم لغة أجنبية تستعمل الخط المنفصل. يوجد حاجز نفسي عظيم بين عالم الهواية، أي العالم المتصل، وعالم الاحتراف، أي العالم المنفصل، ولا يمكن للشعوب العربية تخطيه إلا باستعمال الخط المنفصل. فإذا كانت هنالك بعض السهولة في تغطية نقاط الضعف في طباعة الخط المتصل بواسطة الآلات التقليدية، فهي تظهر جلية أثناء كتابته بواسطة الكمبيوتر، وهذا نظرا للفنيات الخاصة بخزن الحروف وتمثيلها على شاشة الكمبيوتر، والحل الوحيد يكمن في الخط المنفصل.

إن الانتقال من خط إلى آخر في الكتابة ليس بمسألة سهلة، كما يدل عليه تاريخ الخطوط المختلفة، وبالخصوص كيفية ظهور الحروف الصغيرة في الخط اللاتيني المتصل، بحيث استغرقت قرون عديدة، ولم تصل إلى شكل مقبول إلا حديثا. فرغم أن هذا الخط طور من أجل الكتابة باليد، إلا أن كل الحروف فيه تمثل بشكل واحد مهما كان موقعها في الكلمة، وهذا ما ساعد في طبع اللغات الأوروبية بخط منفصل فيما بعد.

لقد ظهرت في البداية، وبعد انتشار الطباعة على كل الأقطار الأوروبية، عدة أبجديات وطنية في ألمانيا، فرنسا، إنكلترا، وغيرها. كان هنالك تنافس كبير بين مختلف تلك الخطوط من أجل فرض وجودها وبسط نفوذها على نطاق واسع، وهذا لأنها كانت تعتبر جزءا من الهوية الثقافية، ولكن لم يبق في الاستعمال في هذا العصر لطبع الكتب والجرائد سوى خط واحد (بعدة فروع) يعرف بالخط الروماني.

فسر نجاح أبجدية معينة يكمن في انسجام وتناسق حروفها من أجل تكوين عائلة في غاية التنوع (لتسهيل تمييز الحروف)، ولكن في نفس الوقت تمتاز بملامح مشتركة (نابعة من تقاليد الكتابة). ويبدو بأن الخط الروماني قد استجاب لهذه المتطلبات، ومثل اللغات الأوروبية بكفاءة.

ظهور الكمبيوتر في النصف الثاني من هذا القرن، أحدث زوبعة كبيرة في ميدان الكتابة، بحيث أصبح من الضروري إعادة النظر في تصميم حروف الخط اللاتيني حتى تتلاءم أكثر مع الآلة الجديدة. سبب ذلك يرجع إلى كون الكمبيوتر يعتمد على المنطق في عمله، ولا بد من ترتيب المعلومات في شكل بسيط ومتسلسل حتى يتسنى للكمبيوتر حفظها ومعالجتها. ولإظهار الحروف على شاشة الكمبيوتر، يجب إيجاد حل لترتيبها في شبكات تحتوي على خلايا محدودة.

لحسن الحظ، إن التفكير في كتابة العربية بخط منفصل بدأ مع التطورات الأولى للكمبيوتر. في البداية، كانت كل من ذاكرة الكمبيوتر، سرعته وشاشات العرض متواضعة جدا. والتحدي الذي طرح نفسه بالنسبة لكل لغات العالم هو تصميم كل الرموز المطبعية بوضوح داخل شبكة تتكون من ٧ X ٥ خلية أو نقطة. بالنسبة للخطوط الأوروبية لم تكن لديها حرية الاختيار لأن الخط المنفصل موجود وتم استقرار صور حروفه منذ زمن طويل، ولا بد من استعمال نفس أشكال الحروف مهما كانت نوعيتها في النهاية.

لقد ظهرت عدة مشاكل في كتابة الخط اللاتيني بواسطة الكمبيوتر. ورغم احتوائه على أبجديتين مختلفتين، فلا يمكن تصميمها بكفاءة عالية، نظرا لكثرة الخطوط الدائرية، والعمودية والمائلة التي تحتوي عليها، بحيث من المستحيل القضاء على ذلك دون اختلاط الحروف ببعضها البعض. ولا يوجد حل آخر إلا بتغيير الأبجدية اللاتينية أو قبول هذا العيب.

فلقد كانت فرصة ذهبية للخط العربي من أجل إظهار قوته وفرض وجوده من جديد. بحيث توجد هنالك حرية كبيرة في تصميم الحروف العربية، ترجع إلى التنوع الكبير في أشكالها، وكذلك إلى عدم وجود الخط المنفصل.

٣. الخط المعياري

لقدتم تطوير الخط المعياري من أجل طباعة العربية بخط منفصل (الخطاطة المطبعية)، وهومستمد من تقاليد الكتابة العربية العريقة، لأنه مبني بالدرجة الأولى على نموذج الخط الكوفي والذي استعمل في البداية لتدوين القرآن، وهذا قبل استبداله بالخط النسخي. فهذا الأخير أكثر ملاءمة مع الكتابة باليد (الخطاطة اليدوية). فيما بعد تم الرجوع للخط الكوفي، واستعمل خصيصا للزخرفة على المباني والمساجد، والنقش على الآلات، وهذا بسبب سهولته النابعة من كثرة الخطوط المتوازية والمستقيمة في تمثيل الحروف.

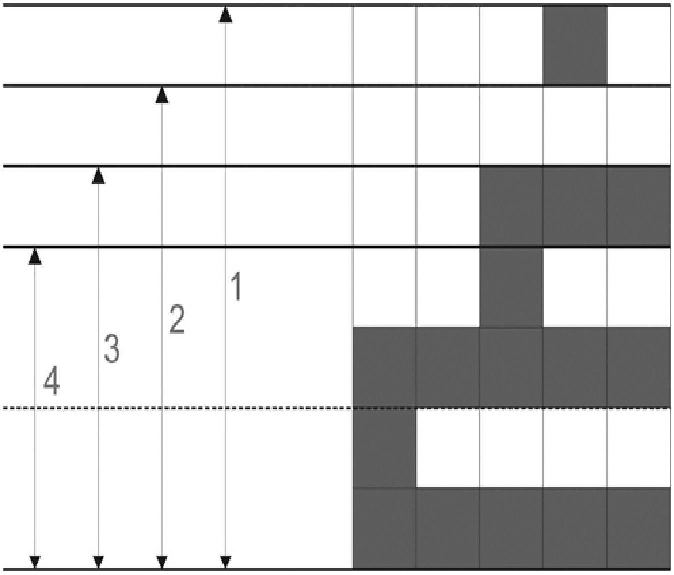

شكل١: كل الحروف ترتكز على قاعدة واحدة وتأخذ ارتفاعات مختلفة
تنسجم مع الكتابة المتصلة وتساعد على القراءة.

كما هو موضح في الشكل ١، تصميم الأبجدية الموحدة تم حسب أسلوب دقيق، بحيث كل الحروف فيه ترتكز على قاعدة واحدة، وتأخذ ارتفاعات مختلفة تنسجم مع الكتابة المتصلة، وتأخذ بعين الاعتبار نتائج الأبحاث الحديثة في تسهيل القراءة. إن الخط المركزي المنقط مهم جدا في تصميم أشكال الحروف لأنه يساعد على تقليل حدة التباين بين صور الكلمات في الخط المنفصل والمتصل. ولقد أثبتت التجارب بأنه عند القراءة، نركز على أشكال الكلمات عوض الحروف. الارتفاع يلعب دورا هاما في تمييز الحروف والكلمات عن بعضها البعض.

كتابة الحروف فوق قاعدة واحدة يعطي صورة منسقة للخط المنفصل. فرموز هذه الأبجدية تقع على ارتفاعات مختلفة وهي كما يلي:

الارتفاع ١ : ا ، خ ، ش ، ض ، غ ، ل ، ة .

الارتفاع ٢ : ث ، ذ ، ط ، ظ .

الارتفاع ٣ : بقية الحروف.

الارتفاع ٤ : ر ، س ، ي.

يمكن تلخيص المفاهيم التي بنيت عليها الأبجدية الموحدة فيما يلي:

١- تستمد أشكالها من الخط الكوفي.

٢- تصميم كل الحروف تم في قالب مكون ٧X٥ خلية.

٢- تحتوي على ٢٩ حرف أبجدي، تبدأ بالهمزة. زيادة على الهاء النهائية، التاء المربوطة، والألف المقصورة (٣٢ رمز في المجموع).

٤- الهمزة كحرف صامت كامل الحقوق.

٥- همزة القطع تمثل برمز الهمزة فقط (ء) مهما كان موضعها في الكلمة.

٦- حرف ألف، وهمزة الوصل يمثلان دائما برمز واحد (ا).

٧- همزة المد (آ) تمثل دائما بالمقطع (ءا).

شكل٢: أبجدية الخط المعياري تسمح بكتابة العربية بوضوح ودقة فائقة باستعمال ٣٢ رمز فقط.
(٢٩ حرف أبجدي تبدأ بالهمزة + ٣ رموز مساعدة)

هذه الأبجدية (شكل ٢) سوف تسهل بكثير دراسة العربية بالنسبة للأطفال والمبتدئين، لأنها تقضي على مشكل كتابة الهمزة، وكذلك الأشكال العديدة للحرف الواحد الموجودة في الخط المتصل. يمكن استعمال هذه الأبجدية كقاعدة ونقطة انطلاق من أجل تصميم عدد لا متناهي من أبجديات أخرى تنسجم مع الطباعة والآلات الحديثة مثل الكمبيوتر والتي سوف تؤدي إلى الدخول الفعلي في عصر المعلوماتية. وعلى سبيل المثال بإدخال تحسينات طفيفة على الأبجدية الموحدة يمكن جعلها أكثر ملاءمة مع الطباعة بالرموز المتحركة، كما هو موضح بالشكل ٣.

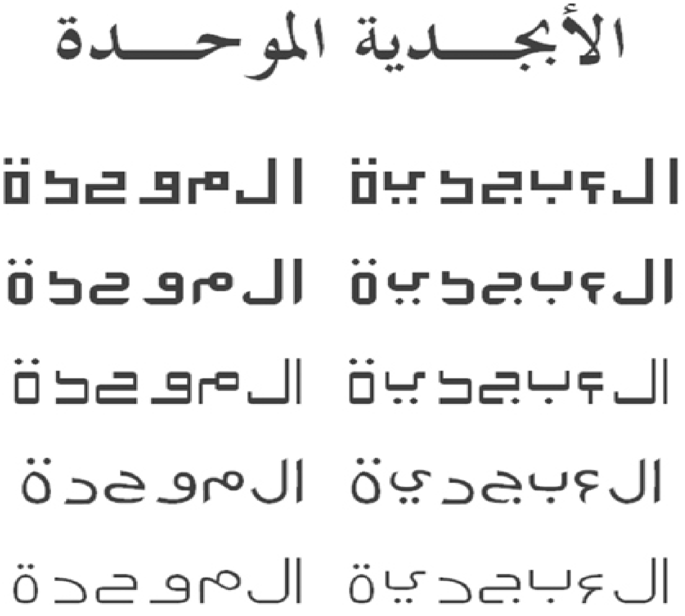

شكل ٣: رغم بساطة هذه الحروف إلا أنها تحافظ على جمال ورونق الخط العربي الأصيل.
يمكن استعمال الخط المعياري كقاعدة انطلاق لتصميم ملايين الخطوط المطبعية العربية.

٤. النتيجة

من أهم النتائج التي تترتب عن استعمال هذه الأبجدية هي:

١- إحداث نهضة كبيرة في ميدان تصميم الخط العربي كما حدث مع الخط اللاتيني عندما ظهرت الطباعة وكما يحدث الآن مع الكمبيوتر.

٢- تسهيل طبع ونشر الأخبار.

٣- السرعة في إدخال، خزن ومعالجة المعلومات بدقة وكفاءة عالية. ومن التوصيات الملحة في هذا المجال إعادة تصميم توزيع الحروف العربية على لوحة مفاتيح الكمبيوتر لتعكس قوة العربية الحقيقية.

٤- يمكن استعمالها في عرض الأخبار على الألواح الإلكترونية بصفة واضحة وأنيقة تضاهي اللغات الأوربية. ٥- الكتابة الرمزية على الجدران والواجهات.

٦- استعمالها لإعطاء بعد جديد للزخرفة العربية في المباني والمساجد.

٧- استعمالها كذلك ككتابة معيارية لإعطاء وجه محترف للرسم الصناعي العربي.

٨- الخط المنفصل سوف يساهم في رفع ذوق ودراية الشعب، ويشجع الدراسة المنهجية للعربية، ويمهد الطريق من أجل نهضة عربية في ميدان الترجمة وتكوين المصطلحات. ويقضي كذلك على الأخطاء اللغوية الشائعة التي توجد مخفية في الخط المتصل المبسط، مما يساعد العرب على دخول عالم الاحترافية وصنع آلات دقيقة وأنيقة، وفي جميع مجالات الحياة.

ولأجل هذا، يجب أن يكون هنالك تكامل وتعايش تام بين الخطاطة اليدوية التي لها فنياتها غير القابلة للتبسيط والخطاطة المطبعية التي لها جوانب علمية وتقنية تقبل التحديث. الخط المعياري سوف يساعد على رفع اللبس عن هذه الاخيرة، بحيث يمكن استعماله للسيطرة على المبادئ الأساسية للعربية، وبعد ذلك الانتقال إلى الخط المتصل، والذي يجب المحافظة عليه كما هو أثناء الكتابة باليد. بل

أكثر من ذلك، يجب معارضة محاولات تبسيط الخط النسخي في الطباعة الحديثة، والتي أدت إلى الخلط بين عدة حروف مثل الألف والهمزة، الهاء النهائية والتاء المربوطة، الياء والألف المقصورة. وهذا قد يكون له آثار وخيمة على فصاحة ودقة العربية إذا استمرت الأمور في هذا الاتجاه.

المراجع

[١]- J.H. Healy، The Early Alphabet، British Museum Publications، London، ١٩٩٠

[٢]- G. Le Bon، The World of Islamic Civilasition

[٣]- V. Monteil، L'Arabe Moderne، Librairie C. Klincksieck، Paris، ١٩٦٠

[٤]- سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، القاهرة، ١٩٤٥

[٥]- N. Khettar، Unified Arabic: Weapon against Illiteracy، Al-Kulliya، ٣٠، ١٩٥٥

[٦]- يوسف غصوب، إصلاح الأبجدية العربية، المشرق، ١٩٣٠

[٧]- زهير الشيهابي، مشروع لكتابة الحركات بحروف عربية، مجلة الأكاديمية العربية، عدد٩، ١٩٢٩

[٨]- S.J. Attoma، ١٩٦١، The Arabic writing System and Proposals for Its Reform، The Middle East Journal، Washington DC، ١٥، ٤٠٣-١٤

[٩]- J.C. Catford، A practical Introduction to Phonetics، Clarendon Press، Oxford، ١٩٨٨

[٩]- P. Richard، A History of the French Language، Unwin Hayman Ltd، London، ١٩٨٩

[١٠]- ابن أحمد الخليل، كتاب العين، تحرير عبد الفتاح درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧

[١١]- سيباويه أبو بشر عمر، الكتاب، مطبعة المثنى، بغداد، ١٩٦٨

[١٢]- ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحرير مصطفى السقاء، مطبعة الحلبي، القاهرة، ٩٥٤

[١٣]- ابن سيناء، رسالة في أسباب حدوث الحروف، تحرير شيخ محمد أشرف، لاهور، ١٩٦٨

[١٤]- https://ar.wikipedia.org/wiki/ابن___مقلة

[١٥]- http://blog.٢٩lt.com/٢٨/٠٥/٢٠٠٧/arabic-type-history/، and http://arabetics.com/public/html/more/History٢٠٪of٢٠٪the٢٠٪Arabic٢٠٪Script___article.htm

[١٦]- http://www.sakkal.com/articles/simplified___arabic/survey.html، and http://www.sakkal.com/articles/Arabic___Type___Article/Arabic___Type١.html

[١٧]- http://www.arabictype.com/blog/articles/problems-of-arabic-typefaces

[١٨]- R. Hamm، Pour une Typographie Arabe، La Bibliotheque Arabe، Sindbad، Paris، ١٩٧٥

[١٩]- عبد المالك بوحجرة، اقتراح في تكوين المصطلحات العلمية العربية، مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية، عدد٩، ١٩٩٨

[٢٠]- عبد المالك بوحجرة، العربية هي لغة الكمبيوتر الطبيعية، منشورات جامعة جيجل، جيجل، ٢٠٠٢